عبدالوهاب البياتي

وداعاً

بينما كان هذا العدد من "مجلة فيلادلفيا" على وشك الصدور، فجعت هيئة تحرير المجلة بخبر وفاة الشاعر العربي الكبير عبدالوهاب البياتي، أحد رواد حركة الشعر العربي الحديث ورموزه المتألقة. ولا يسع أسرة المجلة بخاصة وجامعة فيلادلفيا بعامة إلا أن تتقدم بأحر مشاعر العزاء من أسرة الفقيد والمثقفين العرب.

(هيئة التحرير)

أكذا نموت بهذه الأرض الخراب؟
ويجف قنديل الطفولة في التراب؟
أهكذا شمس النهار.....
تخبو وليس بموقد الفقراء نار؟

.....

أهكذا تمضي السنون؟
ويمزق القلب العذاب؟
ونحن من منفى الى منفى ومن باب لباب
نذوي كما تذوي الزنابق في التراب
فقراء يا قمري، نموت
وقطارنا أبداً.. يفوت!

(عبدالوهاب البياتي)

قصة مترجمة...

شخص آخر سيجيء..

قصة: دوسان كوزل
ترجمة: عبد عون الروضان ـ العراق

مضى النهار بسرعة مرعبة..

في الصباح هذا.. كان قد استيقظ على صرير باب المطبخ. ثم جاءه صوت الدجاجات وهي تقوقيء في الساحة، فتذكر عويل المرأة العجوز في قطار الأمس - أوه.. يا إلهي الرحيم.. أنا متأكدة بأن ذلك الجسر: كان سينسف بعد عبورنا عليه مباشرة، ثم كان هناك وقع أقدام وسمع آونتي توبخ الدجاجات لأنها وسخت عتبة الباب الخارجي، ثم وهي تنثره لها حفنة من الحب.. هل استيقظت لتوك؟.. تمطى بكسل ثم انطلق راكضاً نحو الجدول عند طرف الغابة.. غرف شيئاً من الماء بكفيه ثم تركه ينهمر على وجهه.. كان الماء بارداً جداً إلى درجة تقطع الأنفاس جاء ديك صغير يسعى بخطوات متمهلة مهيبة وهو يرفع رأسه متطلعا بفضول. من تراك تكون؟ ثم قذف الماء الذي كان في فمه باتجاه الطائر الذي صاح بخوف.. هكذا.. هذا ما كنت تريده.. صبّ بعض الماء على ظهره، وهو يطلق لهاثا عاليا: أووووه؟! فأجابه صوت فتاة من تحت، اعتدل في جلسته سريعاً ولكن لم يكن هناك آونتي وهي تومئ إليه من المدخل. ثم وهي تضع أمامه إناء وتعطيه ملعقة طريفة من الخشب.. وعندما أنهى إفطاره قادته إلى خارج الكوخ وأشارت: السقف الذي هناك في الأعلى هل تراه؟ كنت أود لو أنني معك، لكن لدي الكثير من العمل عليّ انجازه وهكذا.. ذهب بمفرده. أقفل الباب بمفتاح ضخم ثم شمل المكان بنظرة متفحصة لم يكن ثمة شيء في الداخل سوى حجارة الموقد الذي يحتل ثلث المطبخ تقريباً.. وكان هناك فجوة في الجدار فيها رف عليه قارورتان من الصلصال ومنضدة إلى جوار النافذة..

مجرد منضدة بسيطة وصغيرة كانت بالنسبة له في وقت سابق كبيرة جداً، حتى أنه لم يكن ليستطيع أن ينظر إليها إلاّ من الأسفل.. كان من غير المجدي أن يحاول الإمساك بطرفها ليفرد قامته بتلك الطريقة، لأنه لم يكن يستطيع حتى بذلك أن يشبع عينيه المسكونتين بالفضول لترى ذلك الذي يصلصل، أو يعبق بالرائحة في الأعلى. فاكتشف أن من الممتع جداً أن يتحسس كل اسيقان تحت المنضدة مفضلاً السيقان الضخمة على كل شيء.. ثم سمع صوت أبيه الذي ينتمي إلى أضخم زوجين من السيقان وهو يقول: الفئران تحت المنضدة من دون شك.. وفي الحال تلتزم الفئران السكون وتبدأ قلوبها تضرب عالياً بخوف بهيج حتى أن الصوت يكاد يسمع في كل أرجاء البيت.. حركة واحدة غير محترسة كانت كفيلة بأن تسبب عويلاً يائساً تحت المنضدة، لكن في اللحظة تلك تظهر الأيدي الكبيرة وتسحبه عالياً ليستطيع الآن النظر إلى المنضدة من الأعلى وليستمر بالنشيج لوقت أطول قليلاً، ولكن ما أن تضرب الأيدي الكبيرة المنضدة مرة واحدة حتى يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي.. والمنضدة الآن بالغة الصغر، بالغة القدم حتى أنه ليشعر بالأسف إزاءها.

وعندما جاءت آونتي ووجدته مقرفصاً تحت المنضدة شعر بالخزي من نفسه.. ظهرت فجأة في الممر برغم أن (لديها الكثير من العمل مما عليها إنجازه) انحنت إزاء عضادة الباب وأخذت تراقبه وهو يفتح باب غرفة النوم ثم وهو يفتش الفراش وخزانة الثياب والمنضدة الصغيرة.

كانت ثمة ملابس مطرزة على عتبة النافذة مع مزهرية مترعة بأزهار نضره تنتصب عليها. . كانت آونتي هناك تنظر إليه بارتياب كما لو كانت تتوقع شيئاً ما سيحدث، وهذا ما جعله يشعر بالارتباك. . الشيء الوحيد الذي تعرف عليه هو منضدة المطبخ وكل ما عداها بدا له غريباً حتى أنه لم يستطع أن يتذكر أنه شاهدها من قبل. قالت آونتي: لم أكن أتوقع مجيئك، ولو كنت أتوقع ذلك لرتبت كل شيء من أجلك.

فأجابها: لا عليك. .

كان يشعر لسبب لا يعرفه بأنها كانت تتوقع جواباً مختلفاً، وكان على وشك أن يقول شيئاً آخر، أن يشرح لها السبب الحقيقي لمجيئه إلى هذا المكان. . لكنه غيّر رأيه، ثم شعر بالفرح حين صار خارج الكوخ مرة ثانية وهو يستنشق بقوة الهواء المنعش البارد.

نظر إلى الريف بعناية، هناك شيء مضحك إلى حد ما فيه، كما لو كان قد رسم من قبل طفل صغير: المنحدر الحاد، الوادي، الجانب الآخر للتل وعلى كل واحد منها ملء قبضة اليد من الأكواخ، بعيدة ومتفرقة. . أي منعزلين هم الذين بنوها. . أنها عالية بشكل لا يصدق. . تبدو للوهلة الأولى وكأنها مستحيلة المرتقى حتى يقع بصرك على الدرب الضيق الذي اختطته أقدام السائرين على جانب التل، أحد الأكواخ كان في مواجهته تماماً على المنحدر الآخر. . أولئك هم (الجيران المتاخمون لهم) أنت تستطيع أن تبني جسراً عملاقاً عبر الوادي. . وهذه الممرات الكبيرة التي اختطتها أقدام السائرين! هناك في المدينة يصدم الناس بعضهم بعضاً في كل خطوة أما هنا، فلعل أحداً لا يطرق بعض هذه الدروب على مدار العام.

عاد إلى الكوخ. . قال لها:

- يبدو لي يا آونتي أنك بحاجة إلى قفص للأرانب. . سأصنع لك واحداً. . ثم قفز إلى العلية وهناك عثر على بضعة ألواح من الخشب. . جميلة وتكاد تفي بالغرض فاسها ثم قطعها ثم قال:

ماذا عن المسامير يا آونتي؟ . . ليس ثمة مسامير هنا. . .

ثم جلس خلال الكوخ بحثاً عنها. . نقب في كل الحيطان وفي السياج الخارجي فلم يجد مسماراً يصلح للاستعمال في أي مكان. . جلس في الباحة وهو يشعر بنفسه مستهلكاً ومحبطاً.

قالت آونتي: لا تهتم لذلك كثيراً. . سأكمل قفص الأرانب بنفسي في وقت آخر، وحين أذهب إلى المدينة للتبضع سأشتري بعض المسامير والآن. . هيّا. . تعال وتناول غداءك.

بعد الظهر ذهب إلى الينابيع المعدنية. . رسمت له آونتي الطريق. . وعندما كان يتخذ طريقه عبر جانب التل منحدراً شاهد فتاة صففت شعرها على شكل ضفيرة واحدة تتدلى على مؤخرة الرأس وهي تنتظر دورها. . كانت تمتع نفسها بالغناء، لكنها ما أن لمحته حتى توقفت وارتبكت. . كان يود لو أنه استطاع أن يكلمها وأن يريها المسدس الصدىء الذي اشتراه من أصدقائه في المصنع، لكنه لم يكن يدري من أين يبدأ بالضبط. ثم قال لنفسه:

سأكلمها في طريق العودة. ثم ركض منحدراً نحو النبع، هناك شرب قليلاً من الماء الفوار ثم استلقى على المرج، وشعر بالراحة. . كان العشب حوله يغني بصوت ذي جرس غريب، إنه مكان جيد يصلح لبناء دارة وهناك سيكون طريق يؤدي إليها تسلكه السيارات التي تنقل الناس الذين سيشربون الماء ويستلقون على

العشب، وفي الشتاء سيمارسون رياضة التزلج.
عندما عاد كانت الفتاة قد ذهبت، قالت آونتي عندما رأته يجمع حاجياته:
- لماذا لا تقضي الليلة هنا؟

قال لها: لا أستطيع.. أصدقائي ينتظرونني..

شعر بأسف حقيقي لأنه سيغادر، إنه يود لو أنه ظل هناك مستلقياً على المرج ذاك يشاهد الغروب، وأسف أكثر لأنه لم يكمل قفص الأرانب.

مسحت آونتي يديها الملوثتين بالطحين بمئزرها، كان ضوء النهار ينحسر بسرعة وظلال قاتمة تنتشر في المطبخ من وراء خزانة الأواني.. قالت آونتي:

تستطيع أن تظل معي عن طيب خاطر.

أنه يستطيع أن يظل هنا عن طيب خاطر، وعليه أن يذهب غداً لقص العشب في المرج أو أن عليه الذهاب للعمل في الغابة أو أن يبدأ العمل في بناء الدارة.. ثمة أكثر من سبيل للحياة هنا.

هز رأسه وقال: لعلي أعود عندما ينتهي كل هذا.
رفع حقيبته التي ملأتها آونتي بالكعك إلى كتفه.. وببطء هبط الممر الضيق الذي اختطته أقدام السائرين إلى الوادي وصاح:

ساعود لأبني لك دارة قرب النبع وطريقاً يؤدي إليها..

ثم تأكد مرة أخرى من وجود المسدس في جيب سرواله الخلفي.. نصحه أصدقاؤه بعدم حمله معه، وقالوا له إنهم سيجهزوننا بالبنادق على كل حال.. لكنه آثر أن يقضي رحلته الطويلة بالقطار ومشدود الأعصاب مخافة تفتيشه على أن يترك مسدسه في البيت.

خطوات قليلة ثم اختفى.. هبت عصفت ريح فحركت الأشجار كانت آونتي ما تزال تمسح يديها النظيفتين الآن بمئزرها.. لماذا، إنه مجرد ولد! إلى الخلف منها كان الكوخ، وحول الكوخ سياج خشبي متداع.. كانت ستعطيه كل شيء لو أنه بقي حسب. شجرة الكمثرى في الساحة، معلقة الخشب التي أولاها اهتماماً خاصاً، ولوناً.. الدجاجة التي تأتي لتنقر قرب النافذة عندما تشعر بالجوع.. لكن ما أخذه لم يكن سوى الكعكات القليلة تلك.. ثم غادر بالطريقة نفسها التي غادر بها أبوها وأخوها من قبل.. في ذلك اليوم كان ثمة رعد قادم من منطقة التلال مثلما هو اليوم.. كان لديها احساس بالخوف من أنه لن يعود أبداً.

أوه.. يا للمأساة.. إنها نزوات أنثوية بالغة السخف.. فكرت أن عليها أن تذهب لتسقي الحديقة حيث تزرع بعض الخضراوات لسد حاجتها الشخصية.. والدجاجات تريد طعامها.. وهناك الكثير مما يجب القيام به قبل أن يهبط الليل.. الكوخ، الحديقة، المرعى، الدجاجات، المعزى، إنها في حركة دائبة من الشروق حتى الغروب مثل النحلة وهي المرأة المتقدمة في السن الواهنة، العقيمة.. بقيت وحدها لتقوم بكل ذلك.. مرة كان لها زوج، لكنه مات، فظلت مع الكوخ المجاور كما لو كان كوخها.. وعندما رحلت الجارة إلى المدينة طلباً للعمل تركت لها البيت مع كل ما فيه من أثاث يصعب نقله.. وعندما كان زوجها على قيد الحياة لم تطأ البيت ذاك إلا لماماً.. إذ كانت تذهب لتغيير هواء المكان أحياناً، ولكن بعد وفاته قامت بطلاء الجدران ورتبت البيت برمته حتى أنفقت آخر فلس لديها من أجل ترميم السقف. وواظبت علي وضع الزهور النضرة في المزهرية. ماذا لو رجع أحدهم فجأة؟ إنها لم تكن لتستطيع أن تترك

البيت يتداعى ويتعفن.. إن أحداً سيجيء حتماً في يوم ما.. لكن أحداً لم يأت منذ بضع سنين.. حتى كانت الليلة الماضية.

كانت الشمس تلامس ذروة الجبل، والنهار الذي انتظرته منذ سنين مات أو كاد.. والآن لا أحد سيجيء ثانيةً.. يا له من فتى عزيز على القلب.. كان يريد أن يبني دارة وطريقاً.. حسناً.. من يعلم.. ربما يستطيع أن يكون مهندساً معمارياً يوماً ما.. ربما سيجيء أحدهم بالفعل ليبني داره هنا وطريقاً تؤدي إليها.. ربما سيجيء أحدهم ليكمل قفص الأرانب.. لكنه من المحتمل جداً أن يكون شخصاً آخر.

قالت الفتاة: هل أستطيع الدخول لأشرب الماء؟

- نعم، بالطبع يا عزيزتي.. ولكن ألا ترين أن من الأسرع لو ذهبت إلى بيتك من أجل هذا؟

اصطبغت وجنتا الفتاة بالحمرة.. ونظرت نحو الكوخ بقلق.

قالت آونتي: لقد غادر.. أنت تعلمين ذلك.

خفضت عينيها.. وراحت تحدق في القدح.

اختفت الشمس وراء الجبل.. شخص آخر سيحبك.

* ولد الفاص دوسان كوزل عام 1940. نشر أولى قصصه عام 1955 عندما كان طالباً يدرس الفلسفة في جامعة براتسلافا. نشر مجموعته القصصية الأولى عام 1964 تحت عنوان «شخص آخر سيجيء».. وبها احتل مكانه بين مجموعة الكتاب الذين أرسوا اسس الأدب السلوفاكي.

قصــــة...

قيامة الميت

عبدالرزاق المطلبي
العـــراق

غريب أن يحدث هذا لي، والأغرب منه أنني لا أستطيع تفسيره، فقد يتشوش فكر الإنسان، أو تتشوش رؤيته للأشياء، وقد يضطرب نظره أن تغيم عيناه، وقد يهتز عقله كله!! لكن أن يقف الإنسان بكامل وعيه، وبكامل يقظته، ينظر إلى حدث غريب يجري أمامه، كما تجري خوارق الحكايات القديمة، فهذا ما يفقده اتزانه أو قناعة ثابتة لديه، وهذا ما يجعله يضطرب اضطراباً مبهماً، وبعنف.

كان والدي رحمه الله قد توفي منذ سنوات، وطوانا وطواه ما يطوي حياة كل البشر ومماته من نعمة النسيان، غير أنني، وبعد أكثر من أربع سنوات على وفاته، أجدني فجأة واقفاً، فارغ العقل والدم واللسان، مرتبك الأنفاس والروح، أرى إلى أبي، الذي كان قد شبع موتاً الآن، وهو يظهر طريحاً على فراش موته، في شكله وهيأته تلك اللحظات من ذلك اليوم البعيد، ثم رأيته يقوم في فراشه، ولم يكن يراه سواي، بدا كما لو كان تمثالاً من حجر سرت فيه روح الحياة بغتة، فاهتز وارتجف، ثم تحرك كأنه سيؤدي عملاً كان قد حضر من أجله.

كان الأهل يتناثرون في أمكنتهم من البيت، يتحركون ويتكلمون وهم يقومون بأعمالهم العادية، كان الوقت قد تأخر تقريباً تلك الليلة، وإن كان (التلفزيون) يعرض فيلماً أجنبياً، جلس بعضهم يتابع أحداثه.

أنظر إليه الآن واقفاً مثل تماثيل عرض الملابس في واجهات المخازن، مشدوهاً تماماً كنت خائفاً، وقد مات لساني أو أني نسيته، وكان أبي يتحرك كما تتحرك آلة موجهة، يمشي بخطى الموت الثقيلة، قاصداً الباب الخشبي الكبير، لا يلتفت ولا يتوقف، كأنه حفظ واجبه عن ظهر قلب، حين بلغه، أغلقه بالمفتاح وبالمزلاج، ثم شرع يتحسس ويختبر قوة إغلاقه بيديه، ويدعمه بوضع أشياء ثقيلة وراءه، كان يتحرك ويعمل بوحي من نفسه هو، كأنه وحده في جزيرة منقطعة، توجهه فكرة لا سبيل إلى حدسها وافتراضها، وفعل هكذا مع بقية الأبواب والشبابيك، التي كان يتحرك بينها مفصولاً تماماً عن زماننا، وعما هو موجود في المكان كله، كأنه كان يتحرك على وسادة من هواء، وحيداً في عالمه الخاص الصامت الغريب.

كنت أرى إليه مأخوذاً تماماً، ولا أدري إن كان الآخرون يرونه مثلي أم لا، كانت حركته تشي بأنه يتوقع خطراً يأتي من الخارج، ويستهدفنا نحن أهله، فقد كان يمد نظراً حذراً إلينا بين لحظة وأخرى، ثم إلى الباب الرئيس، تلتقي عيناي بعينيه، فاهتز مثل غصن مكسور يتدلى في ريح، لم يبد عليه أنه يتوقف عند عيني أو يراني، لم يبد عليه أنه يتعرف علي، أو يثيره شيء لحظة التقاء عيني، بعينيه، كان موجوداً في الغرفة معنا بعيداً عنا تماماً، لم يكن يرانا أبداً، لا يبدو عليه حتى الاحساس بوجودنا، فقد كانت نظراته تمتد بقوة وقلق إلى الخارج،

وبعيداً بعيداً داخل الغرفة، مثل لو كانت لا نهائية الأبعاد! ماذا كان يتوقع؟ أي شيء ينتظر؟ أي...؟!!

فجأة انشق الصمت وانزاح كل شيء تحت ضربات أيد وأقدام، انخلع المزلاج وتحطم القفل، وانفتح الباب الخشبي الرئيس، ودخلوا، كانوا مجموعة من الغرباء المسلحين، اندفعوا بقوة إلى وسط غرفة الضيوف يهددون بفوهات رشاشاتهم، ولم يكونوا يحطمون أو يمزقون أو يسرقون، كانوا يبحثون عن شيء، يبحثون بعيونهم، لم يكونوا يرتدون بزات تميزهم، كانوا كما يتخيل أي منا، زوار الليل الغامضين، غير أن حركاتهم ليست غريبة، فهي مما تعودنا رؤيته في أفلام الجريمة والعنف، ومما أثار دهشتنا جميعاً، أنهم لم يكونوا قد رأونا، لم تكن عيونهم تبصر بنا، بل لم يتنبهوا لوجودنا، نحن الذين هببنا واقفين خائفين مضطربين خوف أن ينطلق الرصاص داخل البيت، أما هو فكأنه كان ينتظرهم هم، بعينيه يترصدهم كان يبصر بهم، وغضبه يغير ملامحه ويجعل وجهه مدخناً وكشيفاً، ويمنح نظراته قوة النوار، وقد رأوه، رأوا أبي فجأة، الذي كان ما يزال ينظر إليهم بقلق وغضب ينطويان على شيء يتعدانا، إذ كان يتنقل بنظره من مكان إلى مكان في الغرفة، ولم يتوجه بعينيه إلى أي منا، كان واضحاً أنه يحاول أن يغلق الطريق عليهم بنظراته النارية كما يعترض جندي السيطرة السبيل في حاجز، أو كما يقف المدافع المستميت، حاولوا إطلاق الرصاص عليه، فأرعبنا انفجار الطلقات، لكنه لم يؤثر فيه، لم يهتز في وقفته الصادة المدافعة حتى حاولوا الإمساك به، ووضع قيود في يديه، لكنهم لم يقدروا، كان كائناً بعيداً، غير قابل للإمساك، كما لو كان شبحاً أثيرياً، أو صورة منطلقة من عارضة سينمائية، ثم أروه أوراقهم، فضعف اعتراضه وتراخت نظراته، فتجاوزوه مندفعين داخل البيت، قلبوا أشياء وقلبوا فيها، ونثروا الكتب والأوراق، التي لم يكونوا معنيين بها، ثم رأيتهم يحملون أشياء تنبهنا جميعاً إلى أنها (الحبال السرية لنا)، كان كل حبل ملفوفاً بقطعة قماش بيضاء مكتوب عليها اسم صاحب الحبل وميلاده وجنسه، وبينها (الحبلان السريان) لأبي وأمي (كان هذا تقليداً في أسرتنا وأسر عريقة مثلها)، أرادوا أخذها، غير أن هبة غضب من أبي جعلت عينيه مثل الجمر، وأنفاسه ناراً، وبدأت قامته المنتصبة في منتصف الممر إلى الباب تهتز بعنف، قصد إليهم بعدها مندفعاً، وأخذ يكيل لهم صفعات قوية واحداً واحداً، وواحداً واحداً ارتعشوا من فرط خوف داهمهم اللحظة، واهتزوا مثل أعواد العشب، وقد ضعفوا تماماً ثم تداعوا منهارين، ورشاشاتهم تسبقهم إلى الأرض، وقد سقطوا على ركبهم، وهم يكون متوسلين أبي، وجزعهم الشديد يجعل عيونهم خاوية، فبدت مثل ثقوب يملؤها التراب، وكان يضحك منهم، يضحك هازئاً بهم، إذ تنحني قامته عليهم، وهم يقبلون قدميه، ويتشبثون بساقيه طالبين الإبقاء عليهم.

ما أزال أتذكر هذه اللحظات العصبية وأتذكر كيف كان الهلع والدهش يسيطر علينا وينسينا أن نفكر في أن يكون هذا معقولاً، كانت ثمة أصوات كثيرة في الشارع، أصوات خطى متراكضة متعجلة، منفعلة، وأصوت سحب أقسام أسلحة وصيحات اعتراض وصيحات غضب وأصوات توسل ونوبات بكاء، كان ليلاً مغلقاً تعزلنا ظلمته الواحد عن الآخر، وتباعد بين البيت والبيت، وكان هناك صوت يشبه النعيق المخنوق لرجل يصدر أوامر غامضة، يبدو أنه تعود على الزعيق لها بطريقته المثيرة في مثل هذه الليلة، كما لو كان قد أتقن عمله هذا تماماً وتدرب عليه ومارسه كثيراً، كانت أصوات الفزع والتوسل وخلق الأعذار وردات الفعل عن الرعب تحاول التشبث بساعديه وكتفيه ورقبته، لكنه كان ينفضها عنه مع كل زعقه أمر يتعمد

خنقها في حنجرته الواسعة، ليحافظ على سرية هويته في مثل حاله هذه، التي ينصب فيها نفسه ملكاً لليله الوحيد.

ومع هذا لم أكن لأتخيل ما يحدث خارج البيت، على نحو يشابه ما كان يحدث داخل غرف بيتنا، كنت أنتظر أن أرى أبي وقد ظهر عليه أثر ما سمعته أنا يدور في الخارج، كلا، لم يكن يصل إليه شيء، هكذاً بدا لي من انخراطه في لحظته معهم، كان خيالي منشغلاً مثل شريط سينمائي يدور عارضاً صوره، ويبدو فيها أبي وهو يأخذ أسلحتهم، ويدير وجوههم إلى الجدار، ويطلق عليهم واحداً واحداً، أو يرمي إلي برشاشة أحدهم، ويأمرني بالإطلاق، وكنت أنتظر، أنا الوحيد الذي كان يسمع ويحس ويشعر ويبصر، لكن.....

غريبة حقاً هذه الليلة، وغريب أبي!! كان بإمكانه أن يقتلهم جميعاً، وقد توقعت، بل وظننته الخيار الوحيد الذي كان أمامه أن يفعله، والذي تؤدي الإحداث إليه، غير أن الذي حدث هو أنه أبقى عليهم، حيث رفعهم واحدا بعد الآخر، من ياقات قمصانهم، وهم غارقون تماماً في فزعهم واستسلامهم، وأوقفهم على أقدامهم، ثم بدأ يعريهم واحداً واحداً أيضاً، عرّاهم تماماً من كل شيء، حتى من ملابسهم الداخلية، وهم يتقبلون منه بطاعة عجيبة، ثم أخذ يقودهم واحداً واحداً من اذن كل منهم، إلى الباب الخشبي الرئيس، وعبر معهم ممر الحديقه إلى الباب الحديدي الخارجي لسياج البيت، ودفع بهم إلى ظلام أسود في جوف ليل غامض، وهذه اللحظة تكسّر بصوت عال زجاج إحساسي بأنهم هم أنفسهم ملوك الليل التقليديون المعروفون جداً من الجميع، وأنهم اغتصبوا ليلنا نحن، بعد أن أسرونا فيه، وأن لا سبيل إلى الركون إلى ظلامه الخاص بنا، في سلام وأمان مرة أخرى، كانوا يتقدمون أمام أبي، كلما دفع بيده العريضة بواحد إلى الشارع، كمن ينتظر دوره في شيء لا يصدق أنه يحدث له، كانوا غرباء.. لكن ممن يتوقع الإنسان دخولهم عليه في أية لحظة في الليل...

أدهش الآن تماماً، ويحتويني عجب يضخمه خيالي ولا يصدقه عقلي، فحين انتهى كل شيء، وعاد الهدوء يتمدد ثانية في غرفة الضيوف، ويهيمن على كل أرجاء البيت، حين عاد الصمت العميق الذي أدمنت الركون إليه وحدي، كان والدي قد رحل خلفهم، وقد حرص على إحكام إغلاق باب بيتنا وراءه، وارتدّ مرتين أو ثلاثاً بحركة كنّا ألفناها منه، يختبر قوة إغلاقه، ثم ابتعدت خطواته في أثر خطواتهم، كأنه ابتدأ مطاردة ليلية لهم، أو لغيرهم..

بعد هذا كله، فاجأني وطير عقلي أن أحداً من أهلي لم يذكر شيئاً مما حصل، بل لم يبد عليهم إطلاقاً أن ثمة شيئاً كان يحدث أمام عيونهم، أو قربهم في البيت، ولم أعرف كيف أتحسس ما لديهم، كيف أشير أو أستفسر، أو أذكّرهم حتى، بخاصة وأن أبي كان قد توفي منذ سنوات، وأن لا أحد يدور في خلده أن يقوم الأموات، مررت من أمام وجوههم واحداً واحداً، مددت إليهم نظراً مستريباً. أختلس أو أتصيد فيه أي أثر أو نامة في ملامحهم أو العيون، ولحظات كنت أنسى نفسي فأتقرب أكثر مما ألفوا، أحملق فيهم وأتفحص وجوههم، لا يمكن ألا يكون قد حدث شيء أمامهم، لا يمكن لكل ضجة الفرع هذه وصخب الخوف أن يكون خيالاً لم يحدث، وإذا حدث فكيف أصدق أنهم لم يروا، ولم يسمعوا ويشعروا مثلي؟!

في الصباح كانت ثمة آثار الكسر في قفل الباب الرئيس ورتاجه، وكانت ثمة فوضى، وقصدت إلى مكان فراش أبي، كان أثره واضحاً لعيني تماماً بحدود ظاهرة

فوق السجادة الكبيرة في ركن الغرفة، والأكثر من هذا أن بعثرة الأشياء، وانتشار الكتب والأوراق والأثاث المقلوب يعيدني إلى أحداث الليلة الماضية حدثاً حدثاً، وحركة حركة، أمام عيني وفي خيالي، وأكاد أسمع خطى أبي وأرى آثار قدميه على فراش الغرفة، وربما في الممر الخارجي، وأكاد أرى يد أيّ من الغرباء على الجزء الذي طالته من أشياء الغرفة. كانت بصمات الحدث الغريب موجودة على كل شيء في الغرفة، حتى الهواء خلقه مليئاً بهسيس الحدث المكتوم وأصوات انفعالات وارتفاع ضربات قلبي، وايقاع النبض في عروق الجميع، حتى في عروق أبي نفسه..

ومن دون وعي، كنت اللحظة أردد:

«غريب أن يحدث هذا لي!! والأغرب منه أنني لا أستطيع تفسيره...»

وكنت اللحظة أخاف، كما لم أخف في أية لحظة ماضية، فخوفي يزداد الآن مع اللحظات... يزداد...

قصة...

بقايا حياة

يوسف يوسف
فلسطين

دقيقة.. اثنتان.. ثلاث دقائق.. تشك.. تشك..
كأن عقارب الساعة تلهث، أو أنها لا تمشي.. كل شيء في الخارج هادئ، إلا من زحير سيارة قديمة تختلس العبور في الشارع. ريح ناعمة تداعب أطراف اشجار اليوكالبتوس الضخمة، فتتراقص متمايلة، بايقاع هادئ بطيء.

لم تأت الغربان لتعلن بداية عرس الدم، والأفق الممتد نظيف. زاغت مني النظرة نحو الأسفل، حيث السيارات سلاحف جائية فوق الشارع، والسواقون نيام. وحدها الرؤوس تدور، باحثة بين الغيوم عن طائرة ملعونة يمكن أن تخسف الأرض. أنا أيضا أبحث عن مثل هذه الطائرة، أو غراب الشؤم كما تسميه زوجتي.

صور كثيرة بدأت تشغل ذهني، وأنا أحدّق من خلف زجاج النافذة. صور متشائمة تحيل الأعماق الى هشيم تتراءى له فيه بقايا جثث، وبنايات فقدت هياكلها، وأشجار لم يبق منها غير جذوع سوداء.

قبل أسبوع وربما أقل، رأيت البيوت التي ابتلعها الدمار في أحد أحياء المدينة. أحد الحاضرين قال يومها:

إنه صاروخ واحد، ولقد اعترض آخر فقال: بل صاروخان. وكنت أقلّب نظراتي بين بقايا حياة كانت هناك. تلك التي ظلّت من بقايا شواهد على همجية الحرب، والرعب الذي تبعثه. رأيت ثلاجة حوّلتها الانفجارات الى كعكة معدنية خرافية الشكل، بقايا فراش، وأخشاب متطايرة من غرفة نوم، وخزانة أذابها الحريق إلاّ واحدة من خاناتها مانزال فيها الروح. رأيت قضباناً حديدية معوجّة تطل من بين الركام، وسقوفا تفحّرت فوق بقايا حياة، وسيارات بلا هياكل، وزجاجا وملابس تتشبث ببقايا حبل غسيل وقد ضاعت ألوانها.

شدّني عز الدين من كتفي. فصرخت: سأبقى في عرس الدم هذا. ولم يذهب. جلسنا فوق بقايا سور محطّم. لا شيء حولنا غير شاهد يتكوّن بالخراب. لا شيء سوى الحياة في الموت الذي يتجول حولنا بلا أكفان، وهو يتمختر بعهره الفاضح الذي يؤكد بشاعة الحرب.

أشار عز الدين الى فستان فوق بقايا الحبل: ماذا يعني لك هذا؟ قلت: فتاة ذبحتها الحرب بدون شفقة. ومدّ يده الى فردة حذاء: وهذه! قلت: ساق طارت، لا تعرف مكان أختها في جسد قد تلاشى.

إنها الحرب، قال باقتضاب. وصمتنا. لم تكن بي رغبة للحديث، هنا الصمت في رفيف الحياة، جدل.

ـ تكلم، قل شيئا.

..... (صمت).

ـ خرست؟

ـ أعماقي تخاطب بعضها.

وضحك، ثم صرخ:

ـ أنت لا ترى أكثر من ظاهر هذا الدمار.

جحظت عيناي على اتساعهما، ورغم ما في دهشتي التي تستعير من الانفعال جموحه، أضاف:

ـ إنك لا ترى غير بقايا الحياة.